صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي

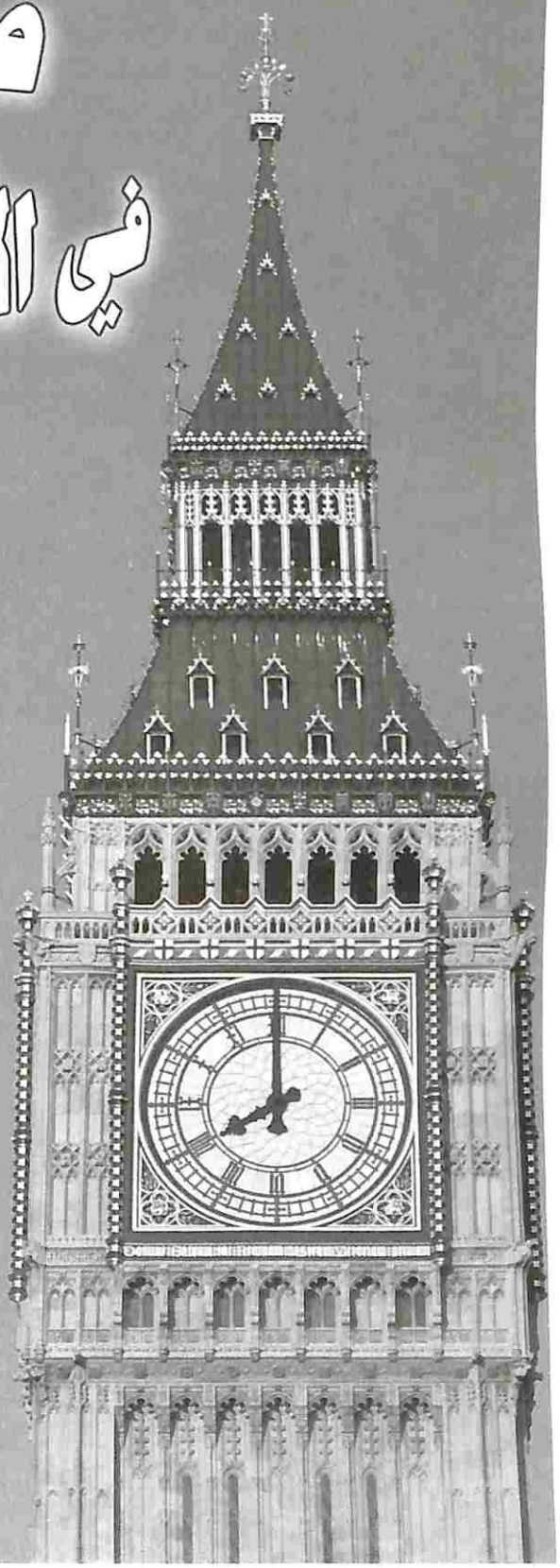

لكل أمة من الأمم، ولمفكريها وأدبائها بوجه خاص، رأيهم في الأمم والشعوب الأخرى، من حيث حضارتها وما تنطوي عليه من ثقافة ولغة ودين وتراث. وهذا الرأي يظهر صداه في أدب تلك الأمة ذلك أنه المرآة التي تعكس شعور هذه الأمة وعلاقتها بالأمم والشعوب الأخرى. والأدب الإنجليزي أحد تلك الآداب التي عكست حقيقة موقف الغرب من الإسلام والمسلمين منذ أن أصبح هذا الأدب واقعا حقيقيا في حياة الإنجليز كأمة.

والدارس لصورة الإسلام في الأدب الإنجليزي، شعرا ونثرا ومسرحا، يجد بغيته في كتاب جامع شامل بعنوان "صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي"، دراسة نقدية تاريخية مقارنة، للدكتور/ عدنان محمد عبدالعزيز وزان، أستاذ الأدب الإنجليزي المقارن بجامعة أم القرى. وهو بحث قيم فيما كتب من فنون الشعر والمسرح والقصة في الأدب الإنجليزي عن الإسلام، وما يلحق به من أدب الرحلات والمقالات الصحفية والفكرية التي كتبت بأيدي عدد من الأدباء والنقاد الإنجليز. والمؤلف ينحو في هذا الكتاب منحى إسلاميا خالصا في ردوده على مفتريات هؤلاء الكتاب. وهو لم يكتف بعرض ما كتبه الأدباء الإنجليز عن الإسلام بل فند هذه الكتابات ورد على أباطيلهم ومفترياتهم على الإسلام، ردا موضوعيا يتسم بالهدوء والمنهجية العلمية.

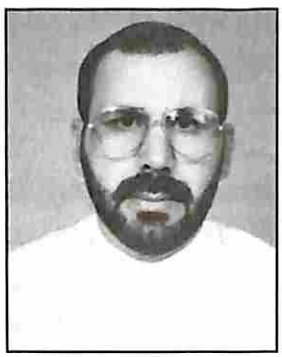

عرض: عبدالباسط أحمد
سوريا

جاء الكتاب في مقدمة وخاتمة واثني عشر بابا في مجلدين من ٨٩٧ صفحة، طبعته دار إشبيليا للنشر والتوزيع في الرياض بالمملكة العربية السعودية وصدر عام ١٤١٨ هـ.

وقد قسم المؤلف أبواب الكتاب بحسب تقسيمات عصور الأدب الإنجليزي لدى معظم مؤرخي الأدب ونقاده. وسوف أحاول في الصفحات التالية استعراض هذا العمل الجليل متبعا في ذلك نفس الترتيب الذي اتبعه المؤلف.

لقد خص المؤلف كل عصر من عصور الأدب الإنجليزي بباب مستقل عرض في بدايته لتمهيد عن التاريخ العام لكل عصر من العصور وعقد صورة مقارنة عن أحوال النصارى والمسلمين في كل عصر، فأسس عليها ما تبع ذلك من عرض للنماذج الأدبية التي تناولت الإسلام نثرا وشعرا .. إلخ. وهكذا تستمر الدراسة في تقصي ما كتب عن الإسلام منذ العصر القديم في الباب الثاني وحتى العصر الحديث في الباب الحادي عشر وينتهي أخيرا بالباب الثاني عشر الذي جمع فيه المؤلف جملة الشبهات والمفتريات التي أثارها الأدباء من خلال كتاباتهم عن الإسلام، وعمل على تفنيدها وتصنيفها حسب ورودها في الأبواب، ورد عليها مبتغيا من ذلك إعطاء صورة كاملة عن هذه المفتريات بعد أن تحدث عنها في كل باب من أبواب الكتاب، وبعد أن أورد مقتطفات من هذه الكتابات شعرا ونثرا.

وسوف أكتفي في عرض الكتاب بإيراد بعض الأمثلة عن أشهر الشعراء والروائيين. وغني عن القول أن هذا العرض لا يغني بأي حال من الأحوال عن قراءة الكتاب بكل تمعن وروية فهو كتاب حقيق بأن يقرأه كل مسلم سواء كان متخصصا أم غير متخصص ذلك أن الصورة التي يحملها أغلب الناس في الغرب عن المسلمين إنما بنيت على هذا الكم الهائل من التهم الباطلة التي ألصقها كبار القوم بأصول ديننا ومرتكزاته.

وما يلاحظه القارئ واضحا هو أن هؤلاء الكتاب قد تفاعلوا في أعمالهم حول الإسلام والمسلمين مع أحداث العصر الذي عاشوه كالحروب الصليبية وفتح الأندلس وفتوحات الدولة العثمانية وغيرها من الأحداث الجسام التي طبعت كل عصر من عصور التفاعل بين أوربا والمسلمين. وهذه الأحداث بالذات هي التي وسعت مدارك الأدباء الإنجليز وجعلتهم ينطلقون في فضاء أرحب نهلوا منه الكثير من الصور، وبدلا من أن يحلقوا فيه للاهتداء بنجومه وضعوا على أعينهم حجبا تمنعهم من إبصار كنهه وإدراك مكنوناته، والتفتوا إلى أقوال وحكايات نسجوا حولها من الخيال ما جعلها تزرع الحقد في قلوب الإنجليز على الإسلام والمسلمين، ومثلهم في هذا مثل إنسان حبس في الظلام ردحا طويلا فلما أخرج إلى النور عشي فلم يبصر إلا ماتخيله عقله المريض من طول الاحتباس عن الدنيا وحقائقها.

مصادر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام

بحث المؤلف في الباب الأول من الكتاب في مصادر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام وقسمها إلى ثلاثة أقسام: أولها اليهود والفكر اليهودي، وثانيها الحروب الصليبية وتاريخها وتعاليم الكنيسة، وثالثها الاستشراق والفكر الاستشراقي.

وحول المصدر الأول، بين المؤلف ما عرف عن اليهود من عداوتهم للإسلام وعملهم على بث روح الفتنة بين المسلمين والنصارى. ويورد الكاتب أمثلة على بعض المفكرين اليهود الذين تظاهروا باعتناقهم المسيحية أو الإسلام أو الإلحاد لخدمة أهداف اليهود كفرويد وبنجامين دزرائيلي واللورد بيكونسفيلد. بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الحديث عن أثر الحروب الصليبية على الأدب الإنجليزي حيث اعتبرها المصدر الثاني من مصادر هذا الأدب. ويستنتج المؤلف أن هذه الحركة الصليبية قد انبعثت عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر التي سيطر عليها الفكر اليهودي واتخذت من الاستغاثة المزعومة للنصارى في الشرق ضد المسلمين شعارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق. وقد أدت الحروب الصليبية إلى اكتساب الأدباء الإنجليز بعدا جديدا كتبوا فيه وحوله ردحا طويلا من الزمن، وبات كل أديب يردد ما كتبه من سبقه. ويضع المؤلف الفكر الاستشراقي في المرتبة الثالثة من حيث كونه مصدرا من مصادر الأدب الإنجليزي ويبين أن هذا الفكر

قد جاء نتيجة حتمية لإخفاق النصارى في حروبهم المكرسة على العالم الإسلامي بعد فشل الحروب الصليبية.

بداية الإشارة إلى الإسلام

يبدأ المؤلف الحديث عن عصور الأدب الإنجليزي في الباب الثاني الذي خصصه للأدب الإنجليزي القديم الذي امتد خلال الفترة من عام ٥٦٠ إلى عام ١٠٦٦ م ويعطي فكرة عن هذه الفترة من التاريخ الإنساني عموما وتاريخ الأدب الانجليزي خصوصا، ذلك أن هذه الفترة تعرف في التاريخ باسم عصور الظلام التي كانت تعيشها أوربا، وما ساد في تلك العصور من همجية وجهل وبربرية وابتعاد عن مصادر الحضارة والنور التي كانت تعم الشرق. لم تكن بريطانيا تعرف شيئا عن الإسلام خلال تلك الحقبة ومن ثم لم تكن الكتابة عن الإسلام والمسلمين وعن الرسول في هذا الأدب القديم واردة ولم يكن لها ذكر واسع في أدب تلك الفترة، ومن ثم لا نجد في القرون الأولى من الأدب الانجليزي القديم أي إشارة إلى الإسلام ونبيه . إلا أن الإشارة إلى الإسلام والمسلمين في الأدب الإنجليزي القديم تظهر في حدود ضيقة بعد انتشار الكتابات الدينية في الأدب.

توسع الكتابة عن الإسلام في العصر النورماندي

وفي الباب الثالث يتحدث المؤلف عن الأدب الإنجليزي في العصر النورماندي الذي امتد من عام ١٠٦٦ إلى عام ١٣٥٠ م حيث توسعت الكتابات عن الإسلام والمسلمين نظرا لأن هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي تميزت بأنها عصر الاتصال المباشر بين المسلمين والنصارى إبان الحروب الصليبية. وقد ظهر دور الكنيسة جليا في إثارة الحملات الصليبية في خطاب البابا أوربان الثاني الذي طفح بالأكاذيب حول المسلمين والإسلام وحال النصارى في بلاد الإسلام. وبعد أن يعرض المؤلف لبعض الملاحم الشعرية التي شنعت على المسلمين دينهم، يتحدث عن الكتاب الذين تعرضوا للإسلام في كتاباتهم شعرا ونثرا خلال هذا العصر من أمثال وليم لانجلاند في قصيدته "رؤيا بيرز الحارث" التي يمثل فيها شخص النبي بالشر والباطل، ويسوي فيها المسلمين باليهود الذين عاثوا في بريطانيا الفساد خلال تلك الفترة بل ويزعم أن النبي هاجر إلى سوريا وأن الشريعة الإسلامية كلها إفك وكذب وأساطير.

أكاذيب في حق الإسلام والمسلمين

أما في الباب الرابع من الكتاب فيتعرض الكاتب لما حفل به الأدب الإنجليزي بشتى أشكاله على مدى العصور الوسطى (١٣٥٠-١٥٣٠م) من بهتان وأكاذيب بحق الإسلام والمسلمين بعد أن قدم لذلك بعرض شامل لسمات هذه الفترة والظلام الذي عاشته أوربا خلالها مقارنة بما كان عليه حال المسلمين من تقدم في العلوم وازدهار في الحياة. ويعد الشاعر تشوسر - وهو أب الأدب الإنجليزي بل واللغة الإنجليزية- أول من تحدث عن الإسلام والمسلمين في كتابه حكايات كانتربري حيث تعرض فيه للنبي ولشرائع الإسلام، بل وعرض باسم النبي الكريم. والواضح من كتابات هذا الشاعر عن الإسلام والمسلمين جهله المطبق بما عليه المسلمون، وماورد في كتاباته ماهو إلا تعبير عن مجرد حقد دفين على الإسلام وأهله. والحقيقة أن تشوسر هو أول من أسس لكتابات من عاصروه أو جاؤوا بعده أمثال جون جور وجون لايت جيت ووليام دنبار.

الإسلام في أدب عصر النهضة

وفي الباب الخامس من الكتاب يعرض الكاتب لأدب عصر النهضة (١٥٣٠-١٦٢٥م) الذي عاصر بدايات الخلافة العثمانية. وبعد مقدمة تاريخية لحوادث ذلك العصر وماحدث فيه من تقدم في شتى مناحي الحياة التربوية والعلمية في أوربا وانفصام المجتمع عن الكنيسة وبداية العلمانية ينتقل المؤلف للحديث عن الأدب في هذه الفترة. وقد اتسم هذا العصر بانكفاء الشعراء في الكتابة نحو الداخل ومعالجة موضوعات داخلية. أما

من بين الكتاب الذين غمزوا من قناة الإسلام في هذا العصر فيورد المؤلف الكاتب الإنجليزي السير فرانسيس بيكون في قصته المختلقة عن أن النبي دعا الجبل فلم يطعه فأطاع هو الجبل فأصبح هذا مثلا سائرا بين الإنجليز: **"إذا لم يأت الجبل إلى محمد، فليذهب محمد إلى الجبل"**. أما جورج ساندیز فقد أكثر من الكتابة عن الإسلام وعن النبي وزعم أنه لم يكن نبيا بل ثائرا على إمبراطور الروم. كما تعرض توماس مور وهو علم من أعلام العلمانية، في كتاباته للإسلام والمسلمين بالقدح والذم. أما السير والتر رالي فكتب كتابه المشهور "حياة وموت محمد" والذي يحتوي على الكثير من المتناقضات حول الإسلام فهو مرة يقول بأن النبي دخل المدينة عنوة، ومرة يقول بأنه دخلها سلما، إضافة إلى الكثير من المغالطات عن الإسلام ونبي الإسلام.

أما في مجال المسرح الذي تطور في هذا العصر وظهر عدة مسرحيين منهم مارلو وجونسون وشكسبير. فقد تعرض مارلو في مسرحيته "تيمورلنك" التي تدور أحداثها في بلدان العالم الإسلامي للمسلمين بالقدح والذم ووصفهم بالغباء، وكل مافي هذه المسرحية يعبر عن الحقد الدفين للنصارى ضد المسلمين. وأشد مافي هذه المسرحية اختلاقا قوله أن ضريح النبي معلق بأحجار مغناطيسية فوق ظهر الكعبة في مكة فهو يقول على لسان إحدى الشخصيات المسلمة:

"بمحمد المقدس، صديق الإله، والذي يبقى قرآنه المعظم معنا وجسده الكريم عندما غادر العالم قد وضع في تابوت وعلق في الهواء فوق سقف معبد مكة الفخم، أقسم أنني لن أخرق هذه الهدنة".

من الملاحظ أن هذه الصورة النمطية لضريح الرسول بقيت لدى الكتاب الإنجليز هكذا حتى تحولت فيما بعد من فوق الكعبة إلى تعليق الضريح في المدينة بين أرض المسجد وسقفه. كما أن هذا المفهوم أصبح مثلا يعبر عن غموض الشيء، فيقول قائلهم: **إن هذا الأمر أو ذاك كضريح محمد**. كما أن المشهد الذي يظهر انتصار تيمورلنك على الخليفة العثماني ويندد بالنبي وبالقرآن الكريم والسنة المطهرة مثال على الحقد الدفين لدى هؤلاء الكتاب:

"والآن ياقازان، أين هو القرآن التركي وكل أكوام الكتب الخرافية التي عُثر عليها في معبد محمد ذاك الذي ظننت أنه إله؟ أحرقوها."

أما وليم شكسبير فيختلق قصة عن النبي وهو أنه درب حمامة على التقاط الحب من فوق أذنيه وأوهم الناس أنها الروح القدس الذي يملي عليه الوحي من السماء:

"إذا كان محمد يتلقى الوحي من حمامة فأنت إذن تتلقى الوحي من نسر."

انشغال الأدباء عن الإسلام بالانقسامات المذهبية

أما في الباب السادس فقد تحدث المؤلف عن الأدب في القرن السابع عشر (١٦٢٥-١٦٦٠ م) حين بلغت الدولة العثمانية أوجها في الفتوحات في عهد السلطان سليمان القانوني وماتبع ذلك من تناحر بين السلاطين بعد موته، بينما كان التاريخ يسير لصالح أوربا التي كانت تعمل على القضاء على القوة الإسلامية ممثلة بالدولة العثمانية. وفي أوربا ظهرت الانقسامات المذهبية الدينية والحروب الأهلية الطاحنة على خلفية الانقسام الديني، ومن ثم أتى الأدب معبرا عن هذه الصورة وشغل الأدباء عن الكتابة عن الإسلام والمسلمين.

ومن أبرز الشعراء الذين كتبوا عن الإسلام في هذه الفترة الشاعر جون ملتون، ومن أشهر قصائده الفردوس المفقود والفردوس المستعاد اللتان استوحاهما من الكوميديا الإلهية لدانتي، وقصة الإسراء والمعراج، ورسالة الغفران للمعري.

الإسلام وعصر التجديد في الأدب

وفي الباب السابع من الكتاب تحدث المؤلف عن عصر التجديد في الأدب (١٦٦٠-١٧٤٠ م) والظروف التاريخية التي سادت تلك الفترة كالضعف الذي لحق بالدولة العثمانية ودخول الأوربيين إلى العالم الإسلامي والتأثر به وازدهار التجارة بين المغرب الإسلامي وإنجلترا وسفر الرحالة إلى بلدان العالم الإسلامي من أمثال ثيفينوت الذي تحدث كثيرا عن العقائد الإسلامية مع الكثير من التزوير والبهتان. كما يلاحظ تأثير الفرس على حياة ملوك الغرب لاسيما بعد اشتداد عودهم على حساب الدولة العثمانية. والملاحظ أن أهم ميزة للأدب في هذا العصر هو أنه أدب العقل مع تغير مضمونه وشكله عن العصر السابق.

ومن الكتاب الذين تحدثوا عن الإسلام في هذا العصر الروائي دانيال ديفو الذي كتب روايته روبنسون كروزو

متأثرا بكتاب "حي بن يقظان" حيث يتحدث فيها عن الشرق بأنه مكان المخاطر والسوء لاسيما بلاد الإسلام، ويصف المسلمين بأنهم خداعون. ومن الكتاب أيضا جوزيف أديسون الذي كتب عدة قصص منها "المشاهد" والتي كذب فيها واقعة الإسراء والمعراج لاعتقاده المريض باستحالة ذلك زمنيا.

أما في مجال الشعر فقد كان أشهر من كتب عن الإسلام الشاعر صموئيل بتلر الذي كتب قصيدة بعنوان "هوديبراس"، والقصيدة مليئة بالحقد على المسلمين والتعريض بهم وأن هوديبراس النصراني الشجاع سيمحقهم لأنهم كالدببة ولأنهم أقرباء محمد. أما إدموند والر فقد دعا في قصيدته "الهجوم على الأتراك وهزيمتهم" إلى محاربة المسلمين العدو اللدود وإنزال الهلال ورفع الصليب. وهناك الكثير من الشعراء والكتاب إضافة إلى من ذكرنا ممن طفحت كتاباتهم بقصص مختلقة عن الإسلام ودعوتهم النصارى إلى قتل المسلمين أينما كانوا.

وعلى النقيض من الشعر لم يكن للمسرح إسهام واضح في الأدب الإنجليزي خلال هذه الفترة ولم يكن لكتاب المسرح نشاط يذكر لأنهم كرروا الموضوعات السابقة في كتاباتهم. وهناك الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن المسلمين في هذا العصر حتى إن مسرحياتهم وقصائدهم كانت تحمل أسماء مسلمين وبلدان إسلامية مثل "حصار دمشق" و "محمد الدجال" للكاتب جون هيوز.

دور المستشرقين في الكتابة عن الإسلام

في الباب الثامن يتحدث المؤلف عن القرن الثامن عشر (١٧٤٠-١٨٠٠ م) الذي مثل بداية ضعف الدولة الإسلامية لاسيما مع دخول الدولة العثمانية حربا ضروسا مع روسيا وازدياد نشاط حركة الأوربيين وسجلاتهم المكتوبة عن الإسلام والمسلمين. كما كان للمستشرقين دورهم كأمثال جوزيف وايت ومحاضراته بجامعة أكسفورد عن الإسلام ومعجزات النبي ووليم بيلي الذي افترى على النبي بأن ماجاء به كله من أعمال الجاهلية لاسيما الحج. هذه الكتابات كونت معينا خصبا للكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي خلال القرن الثامن عشر وما أعقبه من عصور.

أما في مجال الحديث عن الإسلام فقد كتب الدكتور جونسون مسرحية بعنوان "آيرين" زعم فيها بأن المسلمين لايحترمون المرأة ويعتقدون بأن النساء لايدخلن الجنة. وكتب فرانسيس جنتلمان مسرحية بعنوان "السلطان أو الحب والشهرة" جعل المسلمين فيها يحلفون بماء زمزم وبالنبي وقال: **إن النبي غفل عن الغابة التي تحمل أشجارها فتيات جميلات، وحدث الناس عن جنة غير محسوسة. وهو بهذا يرى أنه لا داعي للتعب من أجل الجنة التي تحدث عنها محمد، وادعى كذلك أن النساء مهانات في الإسلام وتهكم على النبي بإيراد المثل الذي اشتهر من قبل " إذا لم يأت الجبل ..."**

وليم شكسبير

وفي مجال الرواية كتب وليم بيكفورد رواية "تاريخ الخليفة الواثق" تحدث فيها عن واقعة فتنة خلق القرآن ووقوف الخليفة الواثق بجانب المعتزلة. ويتشفى الكاتب بالمسلمين ويقول بأنه لو كان دين محمد صحيحا لما وقعت مثل هذه الصراعات بين المسلمين.

أما في مجال الشعر فقد كتب إلياس أروين قصيدته "أناشيد شرقية" أسف فيها - بعد أن شرب الخمر حتى الثمالة على شواطئ الإسكندرية - أن تكون هذه المدينة تحت حكم المسلمين الأراذل. أما الشاعر توماس وارتون فقد كتب قصيدته "الحملات الصليبية" وتحدث فيها عن شجاعة النصارى، وأنهم قادمون لاستخلاص القدس من أيدي المسلمين الأعداء.

أما المسرح فبقي يرزح تحت وطأة تأثير حركة الطهريين زمن إغلاق المسارح، ومن ثم بنى المسرحيون في هذا العصر أفكارهم على المسرحيات التي ظهرت في عصر التجديد وعلى النقل والترجمة من الأدباء الفرنسيين أمثال موليير وسيدان وفولتير وغيرهم. كما أثرت قصص "ألف ليلة وليلة" والحكايات الشرقية في موضوعات الأدب المسرحي في هذه الفترة.

ومن المسرحيات التي تحدثت عن الإسلام مسرحية هزلية بعنوان "يوم في تركيا" كتبها (هنا كولي) صور فيها السلاطين العثمانيين بأنهم محبون لاستعباد النساء الروسيات وأخذهن من أزواجهن ليلة الزفاف.

الإسلام في أدب العصر الرومانسي

يبحث الباب التاسع في العصر الرومانسي (١٨٠٠-١٨٣٠ م) الذي ساد القرن الثامن عشر والذي كان نقطة الانطلاق لاتصال الأدب الإنجليزي بآداب العالم الأخرى. وقد واكبت هذه الفترة كثرة الرحلات إلى الشرق نتيجة لازدياد اهتمام الغرب بالشرق وبلاد المسلمين، وقد انعكس ذلك بوضوح في مجالي الشعر والرواية. كما كان النتاج الأدبي في موضوعات الإسلام والمسلمين والنبي وفيرا وغزيرا.

وقد شغل الأدب حيزا كبيرا في الحديث عن الإسلام والمسلمين والنبي، ومن أبرز من كتب عن الإسلام في هذا العصر حامل لواء الرومانسية وليم وردزورث لاسيما في مجموعته المسماة "معزوفات سماوية" التي وصف فيها المسلمين بالتعسف والطغيان وأنهم يعتقدون أن قبر النبي هو الخلاص لهم يوم القيامة. كما مجد في هذه القصائد الملك ريتشارد قلب الأسد واستحثه لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

أما صموئيل كوليردج فقد كتب قصيدة بعنوان "محمد" زعم فيها أن النبي نشر الشر وأنه هو وأتباعه أصحاب دين وثني وعباد للأصنام وأن الرسول رجل حرب جاء لينشر الجور والظلم والإثم والخطيئة.

ومن الشعراء المكثرين في الكتابة عن الإسلام في العصر الرومانسي الشاعر روبرت ساوثي وقد اعتمد في كتاباته على كتب الرحلات وكتب المستشرقين. وقد كتب ساوثي قصيدة عن هجرة الرسول وأبا بكر اتهم فيها الرسول بأنه هرب من قريش بسبب موت خديجة رضي الله عنها. كما كتب قصيدة بعنوان "لوزريق آخر ملوك القوط" وصف فيها المسلمين بأبشع الأوصاف. وفي نفس القصيدة يغير الصورة النمطية السائدة في الأدب الإنجليزي عن قبر النبي فيقول: **إن الضريح معلق في الهواء في المدينة المنورة بين أرض المسجد وسقفه وإن الملائكة تأتيه بالأخبار من أطراف الدنيا.**

أما اللورد بايرون فقد كتب عددا كبيرا من القصائد التي تتحدث عن الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك قصيدته "حجة الطفل هارولد" التي كتب فيها انطباعاته عن الإسلام ووصف الرسول بأنه كذاب مشعوذ، وأن رسالته ستنتهي يوما ما، وأنه عدو الشعوب. كما كتب الشاعر شيللي الكثير عن الإسلام ومن أشهر ماكتب قصيدته "ثورة الإسلام" وصف فيها المسلمين بأنهم أعداء النصرانية وأنهم كفار ملحدون.

أما في مجال النثر فقد اشتهر لاندرو بكتابه "المحادثات الخيالية بين بعض الناس المهمين في أيامهم" منها محادثة بين الرسول والقسيس سيرجس حيث يظهر أن كلاهما كانا يطمعان في الشهرة، وأنهما تشاورا سويا لتحقيق ما ابتغياه، وأن النبي حرم الخمر لأنها كانت تصيبه بالصرع والإغماء إذا شربها، ومن ثم يرى أنه لا يجوز له أن يحرمها على أتباعه. ومن الكتاب نجد الكاتب والتر سكوت الذي مجد الحروب الصليبية في قصتيه المخطوبة، والطلسم، لاسيما في الأخيرة منهما حيث يختلق فيها الكثير من القصص عن لقاءات جرت بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الاسد، وأن هذا الأخير سيحاول جعل صلاح الدين يعرف خطأه باعتناق الإسلام وأنه سيجعله يعتنق النصرانية.

ومن القصاصين المستشرق إدوارد أبهام الذي كتب عدة أعمال عن الشرق والإسلام ومن أهمها "كارمث: حكاية عربية" يصف فيها الإسلام بالقسوة، وأنه انتشر بحد السيف، وأن القرآن الكريم من ابتداع النبي، وأنه ليس وحيا، وأن هارون الرشيد كان جبارا يقتل الناس ويتخذ الأيتام عبيدا.

أما في مجال المسرح فقد كتب هنري ميلنر مسرحية نثرية بعنوان "البرمكي أو: مأساة النشء" تحدث فيها الكاتب بكثير من السوء عن هارون الرشيد، ووصفه بأنه محب لسفك الدماء. أما إسحاق بوكوك فقد كتب مسرحية زمبوكا، أو صانع الشباك وزوجته" تحدث فيها الكاتب عن قسوة المسلمين على النساء واستباحتهم لأعراض رعاياهم. والملاحظ أن أغلب القصص التي أوردها هؤلاء الكتاب مستوحاة من كتاب ألف ليلة وليلة وأغلبها تركز على الخليفة المسلم هارون الرشيد.

الإسلام في أدب العصر الفكتوري

وفي الباب العاشر يتحدث المؤلف عن العصر الفكتوري (١٨٣٠-١٨٨٠ م) وماتميز به من نقلة نوعية في أغراض الأدب لاسيما معالجة القضايا الاجتماعية، وكثرة أدب الرحلات وكتب التاريخ لاسيما عن الشرق وأهله والتي اتسم الكثير منها بالتهجم على الإسلام والمسلمين. وقد فاق الشعر والرواية المسرح في معالجتهما لمواضيع عن

الإسلام والمسلمين. ومن أهم الروائيين الذين كتبوا عن الإسلام الكاتب بنيامين دزرائيلي اليهودي الذي كان همه الأول إشعال الفتنة بين المسلمين والنصارى في روايته "تانكرد" أو حملة صليبية جديدة، أنكر فيها عالمية نبوة محمد ، ودعا فيها النصارى إلى إشعال حرب صليبية جديدة ضد العرب والمسلمين.

أما في مجال الشعر فقد كتب ألفرد لورد تينيسون قصيدته " ذكريات ألف ليلة وليلة" صور فيها حياة هارون الرشيد وجميع المسلمين بأنها حياة سكر وخمر ونساء وعهر وفجور. وفي قصيدته "سقوط القدس" يقول: إن مدينة القدس قد أهينت كرامتها وقدسيتها ودنس أرضها وكنائسها وصوامعها أتباع النبي محمد. ومن الشعراء كذلك ماثيو أرنولد والذي كتب قصيدة "الإلهية" اتهم فيها النبي بالكذب وأنه جاء بدين جديد في أرض الصحراء التي لم تعرف الرهبان والقساوسة أو الكنائس والمعابد ومن ثم فإن دين محمد – حسب زعمه – سيبقى حبيس الصحراء. وفي قصيدة له بعنوان "الشرق والغرب" صور الشرق بأنه مصدر الظلام والبؤس مقارنة بالغرب مصدر الحيوية والنور والإشعاع. أما المسرح فلم يكن له شأن يذكر في هذا العصر.

الإسلام في أدب العصر الحديث

وفي الباب الحادي عشر يتحدث المؤلف عن العصر الحديث من عام ١٨٨٠ وحتى عام ١٩٥٠ والذي تخللته أحداث سياسية وتاريخية كبرى في أوربا مثل نشوء الأحزاب والاستعمار والثورة الشيوعية وتقدم الصناعة والتقنية وسعي الدول الغربية ولاسيما بريطانيا وفرنسا للقضاء على الدولة العثمانية وتفتيت إمبراطوريتها إلى دويلات والسعي لإنشاء دولة اليهود في فلسطين ووقوع الحربين العالميتين اللتين أحرقتا الأخضر واليابس في العالم كله.

والملاحظ أن الأدب الإنجليزي لم يعد يحفل بالمسلمين في هذه الفترة بعد أن استعمر الإنجليز معظم العالم الإسلامي، بل انتقل الهجوم على المسلمين إلى وسائل الإعلام الأخرى، ثم انتقلت معركة الإساءة إلينا بيننا وبين بني جلدتنا ممن صنعوهم على أعينهم فكفوا أبناء الإنجليز مؤونة التشهير بنا وبديننا. والملاحظ أن كتب الرحلات والتاريخ هي التي شكلت مصدر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام خلال العصر الحديث.

وقد ظهر في هذه الفترة الشعر الحر، وظهرت مدارس أدبية كثيرة مثل الانطباعية والواقعية والوجودية وتيار الوعي والسريالية، وركز الأدباء على ضرورة نبذ الدين وإحلال العلم محله. وفي الأدب ظهر اتجاه الفن للفن على يد وليم بيتر وأصبح النقد الاجتماعي لاتحده حدود أخلاقية أو سلوكية أو اجتماعية فظهر أدب الجنس وأدب العري والأدب المكشوف وأصبح الأدب الإنجليزي يميل إلى العالمية.

أما في الكتابة عن الإسلام في هذا العصر في الشعر فقد كتب الشاعر روديارد كبلنج الذي كان مفتونا بالشرق قصيدة "بعض الحقائق عن حافظ" ويعني به الشاعر المسلم حافظ الشيرازي حاول فيها الحط من قدر المسلمين من خلال إظهار معاملتهم البشعة للرقيق. كما كتب قصيدة "جسر أكبر" وقصيدة " أمير المواعظ الدينية" والتي يصف فيها أحد أمراء المسلمين في أفغانستان بالجبروت والتعسف والظلم بسبب تمسكه بالإسلام. وهو في قصة أخرى بعنوان "عين الله" يكره الإسطرلاب على لسان أحد الرهبان لأنه يذكره بدين الإسلام ولأنه من صنع المسلمين.

ومن الشعراء الذين اهتموا بالكتابة عن الإسلام الشاعر يتس الذي أنصف المسلمين وبين عظمة الدين الإسلامي. ومما كتب قصيدة بعنوان "هدية هارون الرشيد" بين فيها عظمة هذا الخليفة المسلم. وفي قصيدة "سليمان إلى ملكة سبأ" يستقي قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع بلقيس من المصادر الإسلامية. ويمكن القول إن يتس تأثر بالفكر العربي والخلق العربي.

أما أهم من كتب عن الإسلام في هذا العصر فهو جيمس إيلوري فليكر شعرا ونثرا كما في قصيدته "بوابات دمشق" التي يقول فيها: إن البوابة الشرقية مفتاح إلى الشر والبوابة الغربية مفتاح إلى الخير. وتحدث فيها عن الحجاج الحلبيين بسخرية وهم عائدون من الحج بل وهزأ بتحية الإسلام.

ردود على أباطيل الأدب الإنجليزي

في الباب الثاني عشر من الكتاب يفند المؤلف ما ألصقه كتاب الإنجليز على مر العصور بالإسلام والمسلمين من أباطيل لم تستند إلى أي أثارة من معرفة بالدين الإسلامي الحنيف أو بأخلاق أهله، بل كانت من محض خيال هؤلاء الكتاب نبعت من حقد دفين غذته الكثير من أحداث التاريخ التي وقعت بين الإنجليز والمسلمين في المشرق.

وفيما يلي نجمل باختصار أهم المحاور التي تحدث فيها الأدباء الإنجليز والتي رد عليها المؤلف في هذا الكتاب ردا موضوعيا وإسلاميا يقوم على الحجة والدليل الناصع، بل وأيد ردوده في كثير من الأحيان بأقوال بعض المستشرقين المنصفين. فقد تحدث الكثير من الكتاب عن عقيدة التوحيد التي ادعى الكتاب الإنجليز أن الرسول قد أخذها من الديانات الأخرى، ورد المؤلف على هذه الدعاوى مبينا حقيقة التوحيد الخالص. كما قدح الكتاب في شخص النبي وأنكروا نبوته بل وحرف الكثير منهم اسمه الشريف واستبدلوا به أسماء فيها الكثير من القدح، وأشد من قدح في الرسول الشاعر وليم دنبر في قصيدته "السبع الموبقات"، معتبرا النبي أحد هذه الموبقات وقد انبرى المؤلف لتفنيد زيف ماقالوا بالأدلة القاطعة، وبما قاله بنو جلدتهم من الكتاب المنصفين. وتحدث الأدباء الإنجليز عن القرآن، فلم يغيروا كثيرا مما قاله المشركون عن القرآن بأنه أساطير وعبروا عن كرههم له. وتحدثوا عن السنة المطهرة وعن زوجات الرسول بالكثير من البهتان. كما ادعى هؤلاء الكتاب أن الإسلام انتشر بالسيف ناسين أو متناسين حروبهم الصليبية وشيً جنودهم أطفال المسلمين على موائد ملوكهم. كما قدح هؤلاء الكتاب في أركان الدين وعلى الأخص الحج حيث اعتبر أحدهم تهليل وتكبير الحجاج بأنه نباح الكلاب!! وشنع آخر على المسلمين هذا التعب الذي لاطائل من ورائه.

والحقيقة أن كل ماكتبه الأدباء الإنجليز عن الدين الإسلامي ونبيه الكريم كان القصد منه صرف الأوربيين عن دراسة الدين الإسلامي خوفا من أن يتبعوه لما فيه من الحق المبين. فما كان منهم إلا أن انبروا بالقدح والذم ليغلقوا فكر قومهم عن تدبر هذا الدين والدخول فيه. ولذا تجدهم يقولون: إن تحريم الخمر كان لأن النبي يصاب بالصرع منه، وأن الصوم حكم جائر، وأن الأذان مزعج، وأن المرأة مهضومة الحقوق في الإسلام، وأن النبي قد عدد الزوجات لأنه شهواني، وأن الجهاد تعبير عن التعطش لسفك الدماء، وأن الإسلام لايقوم على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن الجنة مجرد خيال. وطعنوا في أصحاب الرسول، ووصفوا المسلمين وخلفاءهم بصفة عامة بأقذع الأوصاف وعلى الأخص هارون الرشيد .. بأنهم ماجنون فاسقون محبون للنساء واللهو والشراب. وأيدوا الحروب الصليبية وأخذوا عنها الكثير من القصص المختلقة عن المسلمين. ولم يعدم المؤلف وسيلة للرد على جميع هذه الأباطيل التي كانت تنبع من جهل مطبق وحقد دفين وخوف ترتعد له الفرائص من انتشار الإسلام بين صفوف الغربيين.

وفي الخاتمة يتحدث المؤلف عن أصناف من كتبوا عن الإسلام في الأدب الإنجليزي ويقسمهم إلى خمسة أصناف فهم إما من القسس والرهبان المعادين للإسلام، أو من المبشرين المروجين لدينهم المحرف، أو من الصليبيين المستعمرين الذين امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد، أو من الجواسيس الاستعماريين، أو من اليهود الذين عملوا لخدمة الصهيونية.

وفي الجملة فإن هذا الكتاب سفر قيم في بيان السم الزعاف الذي احتوته قصائد وروايات ومسرحيات في الأدب الإنجليزي عن الإسلام وأهله، وحقيق بكل دارس للأدب الإنجليزي بل وكل مسلم أن يقرأه ليدرك كم بذلت أوربا وأدباؤها ومن ورائهم بنو يهود ليصرفوا الناس عن دين الله الحق. ولاتزال المعركة حامية الوطيس ولكن تعددت وسائلها، وانتقلت إلى عقر دارنا على أيدي بني جلدتنا فأصبحت مهمة أدباء الإسلام أكبر، ومسؤولياتهم أوسع في الدفاع عن حياض الإسلام من خلال الأدب الإسلامي الهادف الذي يسمو بالإنسان الى سامقات قمم الفضيلة والأخلاق المبنية على أسس الدين الحنيف ومرتكزاته. ■

بقلم: د. أحمد بكر عصلة*
الكويت

كل شيء هادئ، كلٌ يهب في الصباح إلى عمله، ويعود في المساء، يرتاح بعد العشاء، ويستعد ليوم آخر من العمل الشريف ... و"فتنة " أخت الحسن والجمال والبهاء ما تزال نائمة، لا تستيقظ إلا لهدف يسير ... تستيقظ لترشف قليلاً من الماء، أو لتتناول لقمة سهلة سريعة، أو لتقضي حاجة مما يقضيه الناس عادة بعد يسر الهضم وسريان الماء في الأجسام ... " فتنة " عاشقة للنوم .. الكل يصحو للعمل، وهي تتجه للنوم أبداً ... كل الأمور تتم في سهولة ويسر طالما أن "فتنة " نائمة ... " فتنة " الجميلة الرائعة ... " فتنة " التي ما رآها إنسان قط إلا أثاره جمالها، وشدته فتنتها، وسحره صمتها المطبق ... الكل مأخوذ بها، مكبر لها، ولكن الكل حائر لأمر صمتها ...

حين يعود " عبد الكريم الشاقب "، أبو فتنة " ويسأل عنها، ويعلم أنها نائمة، يهم بإيقاظها، لكن " زكية "، أم فتنة، تثنيه عن ذلك، وتقول : دعها، فالخير لنا ولها ولغيرنا أن تبقى هكذا ...

وحين يعود إخوتها وأخواتها يدفع الشوقُ كلاً منهم إلى إيقاظها رغبة في محادثتها، ولم لا، وهي أختٌ لهم على كل حال، ونومها هذا يثير فيهم الخوف عليها وعلى مستقبل جمالها أن يذهب النوم به ... لكن الأم "زكية " تمنعهم، وفي كل مرة تقول لهم: دعوها... دعوها ... فنومها عبادة ... لم يكن الأب أو أحد من الأولاد يفهم من كلام الأم خلاف ما يوحي به، فظاهر كلامها الخير للجميع ... ولكن " زكية "وحدها تعلم حق العلم ماذا سيحدث لو أن حياة " فتنة " تغيرت واستَبْدَلَتْ بالنوم الدائم صحواً دائماً ... هي أمها، وهي أدرى الناس بها، وبطباعها وأخلاقها، وبالأثر الذي ستتركه لو تغيرت ..

لكن حال فتنة هذه لم تعد تسر أحداً، آلمت الأهل جميعاً، حتى الأم، بل دفعت ببعض الأقارب إلى الشك في ذلك، ولربما شك بعضهم في الأم، وهي تمتاز إلى حد ما بنوع من الشدة في التربية، والقسوة في محاولة الإصلاح، مما جعل الخال "أحمد " يقول لها :

– أرجو أن لا تكوني أنت السبب في سلوك "فتنة " الغريب هذا ؟

* دكتوراه في الأدب العربي الحديث، باحث متخصص في المناهج والتأليف لدى وزارة التربية بالكويت، له عدة مؤلفات منها: الموت في الشعر العربي الحديث، ودراسات في أدب الحديث النبوي.

– أبداً .. هذه طبيعتها .. وهي مرتاحة لما تفعل ..
– اسمحي لي أن آخذها إلى طبيب يكشف عليها .
– لقد فعلنا ..
– وماذا كانت النتيجة ...؟
– كل شيء طبيعي ... جسمها ... عقلها ... أعصابها ...
– لا بد أن في الأمر سراً ...
– لا سر ولا مشكلة ... الأمر طبيعي جداً .. وقد تعودنا على ذلك .

ويمضي الخالُ غير مصدق ما يسمع ... وتبقى " فتنة " نائمة ... والإخوة والأخوات مشغولون بأعمالهم وشؤونهم ... لا شيء يتغير ... كل شيء على حاله، ولكن الجميع يفكر في شأن " فتنة " ... ويقررون الاجتماع عقب صلاة الجمعة بحضور الأخوال والخالات والأعمام والعمات ... وبعض كبار السن في الأسرة من ذوي الخبرة والتجربة...

لم يكن للمجتمعين من طلب سوى أن توقظ " زكية" ابنتها " فتنة " لمحادثتها ومساعدتها على الخروج من محنة النوم غير الطبيعي الذي تعاني منه، وتشجيعها بكل الوسائل الممكنة كي تصبح إنسانة طبيعية تمارس حياتها كسائر الناس ... كإخوانها وأخواتها على الأقل ... لكن الأم مانعت بشدة، وأصرت على رفض تدخل أي منهم في شأنها، واحتجت لذلك بأنه أمر شخصي جداً ويمس أسرار " فتنة " ...

الأب يستنكر موقف الأم بعد أن صدق الحاضرون ما ادعته، ولكنهم جميعاً رفعوا أصواتهم، وأيدوا رفض الأب واستنكاره . ولم تجد "زكية " أمام هذا الإصرار خلاصاً إلا أن تتراجع قليلاً، وتلين، قالت :

– إذا كان الأمر كذلك فسأفعل ولكني أحذركم من عاقبة فعلكم هذا ... أنا أدرى الناس بالذي سيحدث حين تصحو " فتنة " ...
– قال الأب : وماذا سيحدث ؟ تكلمي ... هل من سر فظيع تخفينه عنا ؟
– لا، ولكني أكتفي بتحذيركم .
– أهي مجنونة ؟
– لا
– أهي حمقاء خرقاء ؟
– لا
– أهي لصة أم مجرمة .. ؟
– ...
– أهي ابنتنا الشرعية أم لا ؟
– ...
– ألست أباها
– ...
– أليس هؤلاء إخوتها وأخواتها وأقرباءها ومعارفها ؟ أليس من حقهم جميعاً رؤيتها ؟ أليس من حقها هي رؤيتهم ومعاشرتهم ؟ لم تفعلين هذا ؟ ارحمي ضعفها... ارحمي ذلتها ...

وتخرج " زكية " من صمتها، تقاطع سيل أسئلة الأب، والتي لم تعد تجيب عن أي منها، وتقول:

– لقد حذرتكم... وسأوقظها ... ولكن قبل ذلك اتفقوا على سلوك معين للتعامل معها .

قال كبير الأعمام، وهو يكبر أبا فتنة أيضاً، موجهاً كلامه إلى " زكية " :

– ماذا تعنين ؟
– أعني أنها حين تصحو فعلاً ستحدث أمور غير طبيعية ؟
– مثل ماذا؟
– لا أستطيع أن أحدد، ويمكن لكل منكم أن يستضيفها أسبوعاً في داره .
– أهي خطرة إلى هذا الحد ؟
– لن أقول لكم شيئاً، أفضل أن تعرفوا كل شيء بأنفسكم .

ويرتضي الأهل جميعاً هذا الاقتراح، حتى بعض الأصدقاء عرضوا رغبتهم في المشاركة ... كلهم يحب " فتنة " ... كلهم يريدها ... ومن ذا الذي يرفض أجمل بنات المدينة في بيته ؟

وتصحو "فتنة " ... تصحو مع الصباح ... وتبدأ عملها طوال النهار ... ولا تكفيها الليالي ... إنها تسابق الزمن ... تسابق الأيام ... تريد أن تعوض ما فات ... أصبحت أيامها كلها عملاً وشغلاً ... لم تترك حين صحت بيتاً إلا دخلته ... دخلت بيوت أعمامها ... وبيوت أخوالها ... وبيوت كل قريب أو بعيد ... لم ترفض أي دعوة ...